

اللغة العربية في الجزائر بين التحولات الجديدة والتشكلات اللغوية

The Arabic language in Algeria between new transformations and linguistic formations

حورية بن قدور*، جامعة محمد خيضر بسكرة، houria.benkadour@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2022/12/30

تاريخ القبول: 2022/12/18

تاريخ الإرسال: 2022/11/10

ملخص:

لقد تعرض المجتمع الجزائري المعاصر ولا يزال -كغيره من المجتمعات- إلى مجموعة من التحولات والتغيرات التي خصت أغلب المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية. كان وقع هذه التغيرات على نطاق واسع، سواء من حيث عمقها أو اتجاهاتها، أو من حيث آثارها ونتائجها، ولاسيما خلال العقدين الأخيرين، إذ عايش المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة الزمنية عدة تحولات حقيقية وملموسة انعكست على حياة الأفراد، خاصة في ظل الاستعمالات الكثيرة لوسائل التواصل الاجتماعي والانفتاح الإعلامي ذو الطابع المعاصر. وفي الجزائر على غرار العديد من الدول خاصة العربية منها.

وتعرضت اللغة العربية عبر مراحل تاريخية كثيرة إلى العديد من المطبات والتحولات والممارسات، التي أدت إلى عرقلة الاستقرار اللغوي الذي تفرضه الخصوصية الثقافية والجغرافية في هذا المجتمع. جاءت هذه الدراسة بهدف تبيان واقع اللغة العربية في الجزائر بين رهان الثبات أو التحول والتغير.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الانفتاح، التحولات، الإعلام، المجتمع.

* المؤلف المرسل.

Abstract:

Contemporary Algerian society, like other societies, has been and still subjecting to a series of transformations and changes concerning most of the social, political, cultural, and economic fields. The impact of these changes came on a large scale, whether in terms of their depth or directions or in terms of their effects and results, especially during the last two decades, as Algerian society have experienced during this period of time several real and tangible transformations that were reflected in individuals lives, especially in light of the great use of social media and the openness of the contemporary media. In Algeria, like many countries, especially Arab ones, the Arabic language has been subjected through many historical stages to many bumps, transformations and practices, which led to the obstruction of linguistic stability, which is imposed by the cultural and geographical specificity in this society.

This study came to investigate and clarifying the reality of the Arabic language in Algeria between the bets of stability or transformation and change.

Keywords: The Language, Openness, Transformations, Media, society.

مقدمة

بعد التعريب في الجزائر من المواضيع التي تناولتها الكتب والأبحاث والدراسات النظرية والتطبيقية بإسهاب شديد، حتى بد لنا أنه استنفذ حقه من الدراسة، لكونه عولج من طرف العديد من المجالات والمقاربات بدءاً من المجال الاجتماعي واللساني والاقتصادي، وانتهاءً بالمقاربات الفكرية والفلسفية، ذلك أن الأمر متعلق باللغة العربية، باعتبارها ليست وسيلة تواصل وتعبير فقط، بل أكثر من ذلك، باعتبارها مقوماً من مقومات الشخصية الجزائرية ورمزا من رموز الهوية والانتماء. فمشروع التعريب لم يكن مشروعاً إدارياً أو قانونياً أو تربوياً فحسب، بل كان يحمل معه مشروع استعادة هوية الجزائريين الذين كادوا أن يفقدوها إبان الاحتلال الفرنسي الغاشم.

ومنه نطرح الإشكال التالي: إلى أي مدى يمكن للنظام الوطني أن يعزز من أمنه الثقافي واللغوي، أمام هذه اللغة المرئية المعاصرة (لغة وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي) العابرة للحدود والتي لا تتقيد بأية منظومة تربوية أو اجتماعية أو قيمية وأثرها الكبير على الوحدة والهوية في المجتمع الجزائري؟

1. التعريب بين التشبث باللغة العربية والبحث عن الهوية:

• التعريب: التسمية والمفهوم:

تقول الباحثة مسعودة خلاف: "في تعريف التعريب مصطلحا تقدم المعاجم اللغوية التراثية ضمن شرحها اللغوي ما هو من صميم مفهوم المصطلح -تعريب- في علوم اللغة، ذلك أن المفهوم في المعاجم اللغوية والمختصة في علوم اللغة، وكذا في الكتب المهتمة بالمصطلح وآليات تصنيفه كأحد المفاهيم التي تحملها المعاجم اللغوية المعاصرة، فنجد في لسان العرب: تعريب الاسم الأعجمي: أن تنفوه به العرب على مهاجها، تقول عربته العرب، وأعربته أيضا" (مسعودة، 2011)

ونجد المفهوم لدى جلال الدين السيوطي في كتابه المزمهر في علوم اللغة على النحو التالي: "المعرب من الألفاظ هو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوععة لمعان في غير لغتها".

من خلال العديد من التعريفات للمصطلح نجد أن المقصود من كلمة التعريب هو: جعل الكلام عربيا، أي السعي نحو تغيير سياقها الأجنبي -الأعجمي- إلى العربي، من لسان غير عربي إلى لسان عربي.

إذا كان التعريب المقصود منه: "أن نجعل كل ما ليس بعربي عربيا"، فهذا العمل هو مختصر فقط على العرب أو المتحدثين العرب، على عكس ذلك فرنسة أو أنجليزية. وبالتالي فهو لا يعني أنها معربة بل خضعت لعملية التعريب arabisation، أما تسمية التعريب فكان القصد من ورائها تعريب المجتمع، تعريب التعليم، ونشر استعمال اللغة العربية كلغة داخل المجتمع، وهو ما كان يراد له في الجزائر، بدليل أن اليافطة التي كان التعريب يشتغل تحتها هي "تعميم استعمال اللغة العربية".

2. العربية والفرنسية في الجزائر: تعايش أم صراع:

أكثر ما يلائم وصف الحالة المتشابكة أثناء محاولة تطبيق وتفعيل مخطط سياسة التعريب في الصراع اللغوي الذي كان مشتتعا بين مؤيدي اللسان العربي ومؤيدي اللسان الفرنسي، هو أنه صراع بين العريفونية والفرانكفونية، أي بين الناطقين باللسانيين، لكن الحدة كانت أحيانا بين اتجاهين متشددتين: عربوفيليا وفرنكوفيليا، أي محبو اللغة العربية والمتحمسين لها، مقابل محبي الفرنسية والمدافعين والمتحمسين لها وحدها دون غيرها. فالفرانكفونيون وهم الناطقون والمتقنون للغة الفرنسية باعتبارها كانت لغة المستعمر ولغة المدرسة الفرنسية في الجزائر واصلهم كانوا من جيل الثورة وما قبلها. هذا الجيل لم يكن يحب الفرنسية ويتعامل بها باعتبارها لغة المستعمر، بل لأنه لم يكن يعرف غيرها بفعل التجهيل الاستعماري باللغة العربية وبفعل التكوين اللغوي. وهذا لا يعني أنه كان يعتنقها كأيدولوجيا، بل "مرغما". لهذا نجد البعض من المثقفين والأدباء "الفرانكفونيين" كانوا يعتبرون لغة المستعمر "غنيمة حرب"، (كاتب ياسين مثلا)، فيما كان آخرون

يعتبرونها "لغة منفى" الروائي مالك حداد، مثلا، صاحب هذه المقولة وأيضا "محمد ديب" وكثير من الكتاب والمثقفين والسياسيين الناطقين باللغة الفرنسية، المدافعين عن اللغة العربية.

أما الاتجاه الفرنكوفيلي فكان يتجاوز حدود رابطة اللغة الفرنسية كلغة تواصل وحيدة مفروضة من طرف المدرسة الكولونيالية أو حتى كغيمية حرب، بل يكون كل الإعجاب والانهار والتعلق بكل ما له علاقة باللغة والأمة الفرنسية، إلى درجة اعتبارها لغة هويتهم في هذا البلد، وطالبوا ببقائها كما كانت في سابق عهدها، وهم من يشار إليهم أحيانا في الأدبيات الإعلامية والسياسية "بالاندماجين الجدد" أو "الأقلية الساحقة" « كان رئيس الحكومة الجزائري الأسبق "سيد أحمد غزالي" أول من استعمل على نطاق رسمي هذا التعبير "الاندماجين الجدد" أيام ترأسه للحكومة بداية التسعينات، في إشارة إلى الاندماجين من جماعات فرحات عباس خلال الحركة الوطنية في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي. كما نجد استعمال عبارة "الأقلية الساحقة في الجزائر"، كثيرا ما تتردد على السنة بعض كتاب الأعمدة الصحفية منهم "سعد بوعقبة" في يومية الخبر وعماريزلي في يومية "الشروق" وبين مؤيد ورافض، ومدافع ومعادي، دخلت اللغة العربية في جدال أكثر ما يقال عنه صراعا أيديولوجيا وسياسيا، فيما غاب الحوار العقلاني في كثير من المحطات أو تم "الهروب إلا الأمام" أو إلى الوراء عن طريق السكوت عن المسألة وتجنب الخوض فيها سياسيا ورسميا. وأكثر ما يمكن أن يقال في هذا السياق بشأن اللغة العربية التي كادت مكانتها أن تفقد بلد لطالما افتخر شعبه ومواطنوه بعروبتهم وحجمهم للغة العربية، ما قاله محمد بلقاسم خمار وكأنه يرثي المجتمع الجزائري والوطن والهوية: "... وبذلك حققت فرنسا في الجزائر المستقلة ما لم تحلم به وهي تستعمرها (...). تمكنت فرنسا من اكتساح أغلب الأنشطة الإدارية والاقتصادية والسياسية وجل المعاملات في المدن الكبرى، بينما تقلصت وتراجعت اللغة العربية الوطنية، وكأنها لغة أجنبية غريبة" (مسعودة، 2011)

وظلت مسألة حسم اللغة الرسمية تتجاوز كل الأبعاد الحقيقية للغة اللسان وجعلتهما مجرد مسألة شكلية وسياسية تتغير حالها بتغيير المسؤولين والقائمين على الدولة والحكم. وفي حديثنا عن الازدواجية اللغوية الحالية والمشاكل التي يعاني منها الفرد، والمجتمع الجزائري في لسانه وضبط هويته، نجد هذا التغلغل للغة الفرنسية في الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة لم يرى له مثيل، رغم أن العديد من الدول العربية تعرضت للاحتلال، كالاحتلال البريطاني لكن لم نر اللسان الانجليزي يطغى أو يصارع اللسان العربي عندهم. ولتفسير ذلك، نجد لويس جان كالفي يوضح الأمر قائلا: "هو إقرار بأن حدة الحرب الجامعة بين اللسانين العربي والفرنسي أقوى بكثير من تلك الجامعة للسان وغيره من الألسن، والسبب في ذلك راجع إلى ما يحمله جنود اللسان الفرنسي من إجلال للسان الفرنسي تبدي تأثيره العميق وترجمته الواقعية في مؤسسات حكومية وغير حكومية

... " (حرب اللغات والسياسات اللغوية (لويس، 2008) وعليه، لا يمكن التغافل أو نكران أن المجتمع الجزائري الذي انكوى بنارين: نار الاحتلال والاستعمار الفرنسي، ونار المخلفات والآثار الجمة التي عرفت السلطات الفرنسية كيف تفرس بذورها أثناء الاحتلال لتجني ثمارها بعد فترة الاستقلال والحرية. فالمشاكل والصراعات حول موضوع التعريب تخطت حدود الجزائر، لتصبح مادة دسمة لدى الإعلام الفرنسي، يتعدى ويهاجم ويشير إلى خطورة التعريب ويفرض أحادية اللغة ويحول المخطط إلى مسألة عرقية لخدمة الأغلبية (العرب) وإقصاء الأقلية (الأمازيغ). بل أن اللغة صارت في كثير من الأحيان حصان طروادة في الصراعات السياسية بين الجزائر وفرنسا، خاصة أيام حكم الرئيس هواري بومدين (1979.1965)، حيث كان أي خلل دبلوماسي بين فرنسا والجزائر في أي مجال، كانت السلطة الجزائرية، أول ما تقوم به كعنوان دبلوماسي للرد على المواقف التي ترها السلطة الجزائرية استفزازية وذات طابع "استعماري مقنع"، كانت تقوم بتجميد "النشرة باللغة الفرنسية" ضمن برنامج قناتها التلفزيونية الوحيدة، حتى أن المواطن المتتبع للأحداث، رغم شح الأخبار عن التوترات السياسية بين البلدية، كان يفهم أن هناك خلافا بين البلدية لما يلاحظ أنه تم تجميد أو إلغاء "نشرة الأخبار باللغة الفرنسية". تجميد، سرعان ما يعود بعد انقشاع الضباب في العلاقات بين البلدين.

كل هذه الأحداث انعكست على المجتمع الجزائري الذي لا زال لحد الساعة يعاني ويعيش في

ظل تراكماتها.

1.2 اللغة العربية والهوية الجزائرية:

إذا كان "التواصل ليس إلا شكلا من أشكال استعمال اللغة كأداة للتعبير عن الأفكار، والتعبير عن الأفكار هو ذلك الإنتاج الفكري، فإن هذا الإنتاج الفكري في لغة من اللغات يتحول بمرور الزمن إلى إرث للمجتمع الإنساني لتلك اللغة والمتكلم بلسانها" (مسعودة، 2011) وبإسقاط هذا على مجتمعنا، نجد أن لغة التواصل والإنتاج في مجتمعنا كانت طيلة قرون باللغة العربية. ذلك أن اللغة العربية المرتبطة بالدين الإسلامي، والتي انتشرت بانتشار هذا الدين، ما كان يمكن لها أن تصل إلى مستوى هذا الانتشار بدون الدين. لهذا فضل الدين على العربية كبير. فرغم أن الجزائر عرفت عدة حضارات ولغات، أولها الأمازيغية، فإن العربية هي الوحيدة التي بقيت إلى جنب هذه اللغة الأم. الأمازيغية. حاضرة إلى اليوم رغم مرور أكثر من 14 قرنا من دخول الإسلام إلى الشمال الإفريقي. فيما اضمحلت واندثرت كل اللغات الأخرى التي جاءت بها الحضارات والغزوات الأخرى بدء من الفارسية والإغريقية والرومانية ثم الفينيقية والرومانية والوندالية والإسبانية والتركية. ورغم كل ما فعل بالعربية والأمازيغية على حد سواء، خاصة في الفترات الأخيرة، ما بعد القرن 17 و18، فإن العربية بقيت حاضرة في الذاكرة وفي التراث من خلال ارتباطها بالمقدس، الذي هو الدين، في حين

تراجعت الأمازيغية وتقلصت منذ الفترات الأولى للغزو الروماني. فاللغة الرومانية والفينيقية كانت لغة المجتمع الجزائري القديم، لغة التواصل والعلوم والتجارة، فيما كانت الأمازيغية لغة التواصل اليومي العامي. الإنتاج المعرفي في اللغة العربية بعد الفتوحات وما واكب ذلك من تطور للمجتمع الإسلامي في الشمال الإفريقي أو في الأندلس أو في المشرق العربي، جعل من اللغة والدين عروتين لا يفتقان: أنتجت الأفكار والمعارف اللغوية والعلمية والفقهية والتاريخية باللغة العربية دون غيرها، وبمرور الزمن أضحت معارفهم تلك هي القاسم المشترك الذي يعزز الانتماء الواحد الذي هو المشكل الرئيسي للهوية الفردية والجماعية. وبالتالي تتضح قيمة اللغة العربية في علاقتها في تكوين هوية وطنية موحدة لدى كل من يتقاسمون هذا الإرث الفكري.

رغم التداخل بين اللغة والهوية في الجزائر، إلا أنه لا زالت اللغة العربية تعيش صراعا ثلاثي الأقطاب إن لم نقل رباعيا كما تقول (مسعودة، 2011)

. صراع اللغة العربية لإثبات وجودها رمزا للهوية، وعنصرها مهما في الشخصية الجزائرية، ومقوما من مقوماتها الوطنية، إذ تعمق هذا الدور خاصة بعد الاستقلال من أجل تأكيد الهوية العربية الجزائرية.

. صراعها لإثبات علميتها، ثم إثبات جدوى استعمالها كلغة علمية ورسمية، ردا على المدعين بأن اللغة العربية لم تعد لغة علم ولا تحضر.

. صراعها مع اللغتين الفرنسية والأمازيغية في آن واحد، ذلك أن دعاة اللغتين يراهنون على كونهما رمزا من رموز الهوية الجزائرية أيضا، بل أنه تاريخيا، كان دعاة الفرنسية والأمازيغية على حساب العربية، يمثلون قطبا واحدا سعي في الأدبيات التاريخية بالجهة "الفرانكو بربرية". هذا القطب، نجده ممثلا في تيار من التيارات اليسارية وأيضا في بعض التيارات اليمينية، التي استلهمت روح فرنسا في الدفاع عن البربرية لحاجة في نفسها ضمن استراتيجية ضرب العربي بالبربري، وهو ما أطلق عليه في العهد الفرنسي "بالسياسة البربرية في الجزائر"، وأيضا في المغرب الأقصى. وخير رد فعل في الثلاثينات من القرن الماضي هو رفض ما سعي في المغرب "بالظهير البربري" (بزلي، 2016) صراعها مع اللهجة المحلية – العامة.

هذا الوضع الجديد للغة كانت لغة التقدم والحضارة ولغة المقدس، ورغم أنها بقيت رمزا من رموز الهوية الجزائرية، لا وضعها هذا رهين الصراعات الهوياتية التي بقيت كقير من العناصر لم يحسم فيها الفرقاء السياسيون بعد الاستقلال. هذا الوضع هو ما أثر على العربية، والأمازيغية على حد سواء، وبالتالي تبقى وضعية اللغة العربية في بلادنا تؤرق الجزائريين وأصحاب الاختصاص، كما تؤرق كثيرا منهم وضعية الأمازيغية.

2.2 المجتمع واللغة:

أكثر ما يساعد الباحثين والأنثروبولوجيين على فهم طبيعة اللغة وجوهرها هو: "أن ننظر إلى الدور الذي تقوم به في حياة الفرد وفي حياة الجماعة، التي يؤلف بين أفرادها الحديث بلغة مشتركة وفي حياة النوع الإنساني عامة" (أمل، 2011)

انطلاقاً من هذا، يتضح أن نصل الإنسان ليس بمعزل عن العالم المحيط به، بل هو جزء منه. فحين نتحدث عن تلك العلاقة القائمة بين اللغة باعتبارها أداة تواصل والمجتمع، باعتباره محيط وبيئة هذا التواصل، وما تؤديه اللغة من وظائف في المجتمع كونها الرابط الأساسي للأفراد منتجي هذا التواصل، لخلق حلقة من التواصل، نعرف مدى أهمية اللغة ووظيفتها وحمولتها الفكرية والثقافية في الوعي واللاوعي الإنساني.

وبما أن المجتمع هو تلك المجموعة من الناس تميزهم (تجمعهم) ثقافة مشتركة، ولهم كيان ذاتي ويتواصلون من أجل أغراضهم، والحفاظ على مصالحهم وعلاقاتهم (نظام الحكم، نظام الأسرة، الطقوس والممارسات، القيم ...) وبما أن اللغة هي الأداة (الكلمات والمفردات) المعبرة عن عملية التواصل تلك في جميع مظاهر الحياة، فهذا المجتمع يمكن أن يظهر فيه تواصل لغوي يعبر عنه في عدة لغات ويوصف بالمجتمع المتعدد اللغات. فالتعدد اللغوي رغم أنه يقوي الروابط بين أعضاء هذا المجتمع، إلا أنه يبقى رمزاً لاختلاف الأفراد والجماعات داخل هذا الكل المنسجم ظاهرياً، المختلف داخلياً والمتصارع أحياناً كهويات وكنتماءات عرقية أو طائفية أو حتى طبقية أحياناً. ذلك أن اللغة قد تتخذ أشكالاً عدة ضمن النسق اللغوي لتصبح عنواناً ورمزاً معبراً عن كيانات صغيرة أحياناً، لا تتعدى منطقة صغيرة، قبيلة أو مجموعة عشائر أو حتى فئات أو شرائح اجتماعية. فاللغة كغيرها تعتبر من المنتجات العقل الجمعي لذلك تخضع لكل التغيرات داخل مجتمعاتها، ومهما تعددت أنماط الحياة في المجتمع الجزائري (زمانياً ومكانياً) إلا أن استعمالها يتواصل رغم التأثيرات الجانبية التي تخضع لها هذه اللغة أو تلك، خضوعها لمستعملها نفسه كإنسان. لهذا فاللغة كائن حي. لأنها تستعمل من طرف كائن حي عاقل الذي هو الإنسان. ولهذا فهي معرضة للموت وللتطور وللتقهر والضعف بتعرض مستعملي هذه اللغة من الأفراد والمجموعات البشرية.

3.2 الهوية اللغوية الشعبية:

التنوع اللغوي داخل مجتمعاتنا الجزائري، موجود وواضح وهذا راجع إلى تلك الخصوصية وإلى ذلك التنوع داخل المجتمع المفتوح على تقبل هذا التنوع والاعتراف بكل الخصوصيات داخله. لذلك نجد أن الثقافة الجماعية تختلف عن باقي الجماعات الثقافية الأخرى، وهذا بفعل تراكم الإنتاج الإنساني والذاكرة الحافظة عبر الأجيال.

• **اللغة:** اللغة كما يصفها بومديني بلقاسم: "هي وسيلة الاتصال داخل الجماعات البشرية، وهي ذات صلة بخصوصية الإنسان في التفكير خلافاً للحيوان (...). ويرتبط استعمال اللغة ارتباطاً وثيقاً بما يمتاز به الإنسان من قدرة على التفكير، إذ يختلف الإنسان في تفاهمه مع غيره أكثر من اختلافه عن الحيوانات الأخرى في التعلم والتفكير" (بومديني، 2003)

• **اللهجة:** غالباً لا ينفرد مجتمع بلغة واحدة، أي أنه لا يمكن لمجتمع ما أن يحيى في ظل انغلاق (أحادي) لغوي، لذلك يلجأ أبناء اللغة إلى إنتاج لغة منها تكون لغة الحياة اليومية لتسهيل التعاملات ولإسقاط ضغط القواعد والأنظمة اللغوية. فأى مجتمع يمكن نعتة بمجتمع ثنائي اللغة (لغة فصحي ولغة عامية - لهجة-).

اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي: "مجموعة من الصفات اللغوية تنتهي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة، وبنية اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل،

تضم عدة لهجات" (مادن، 2011)

كما أن "اللهجة هي تنوع للعامية تخضع للعوامل الجغرافية" (مادن، 2011)

، إذ نجد (Dubois, 1973) يعرفها أيضاً على أنها: "شكلاً من أشكال اللغة، لها نظام خاص على المستوى الإفرادي والتركيبى والصوتي، وتستعمل في محيط ضيق بالمقارنة مع اللغة نفسها"

كما يعرفها عبد المالك مرتاض على أن: "اللهجة: بفتح الهاء وسكونها معاً، ولكن السكون أفصح وأعلى عبارة عن المادة النطقية التي تكيف مقاطع صوت امرئ ما، - وهذه العادة النطقية - إن

صح مثل هذا الإطلاق، تنشأ عند المرء تحت تأثير العوامل البيئية والفيزيولوجية والوراثية"

. ولقد تشعبت العامية الجزائرية بعدة لهجات، والتي تمثل الهيكل اللغوي العام للمجتمع

الجزائري بكل أطرافه، ويرجع العديد من الباحثين كثرة اللهجات وتعددتها في المجتمعات الحالية غالباً إلى التوسع الجغرافي وتنوع التضاريس واختلاف الأقاليم، وبالتالي تباعد اللهجات ومفرداتها

ومدلولاتها، كل هذا يخلق التمايز والتباعد والخصوصية اللهجية.

الهوية: بالرغم من أن مصطلح الهوية (بضم الهاء) هو مصطلح حديث النشأة، إلا أنه حظي باهتمام

كبير في حقل العلوم الاجتماعية والسياسية والفلسفية. فقد كثر استعمال هذا المصطلح في السنوات الأخيرة باعتباره أصبح يمثل مدخلاً لدراسة ومعرفة مجموعة من الظواهر الحديثة (الحالية). فليس

من السهل تحديد المعالم الأساسية للهوية نظراً لاختلاف وجهات نظر المفكرين والباحثين الذين طرّقوا هذا الباب أثناء حديثهم عن المعالم الأساسية المكونة لنواة الهوية وتفرعاتها، كما أن مفهوم

الهوية في حد ذاته - نظراً لديناميكيته- عرف عدة تعريفات وتأويلات اختلفت باختلاف الاهتمامات والأيديولوجيات وحتى السياسات، فيما نجد "جان بيار غارني" يعرف الهوية على النحو التالي: "تحدد

الهوية بصفتها قوائم السلوك واللغة والثقافة التي تسمح لشخص أن يتعرف على انتمائه إلى جماعة اجتماعية والتماثل معها" (غارني والأودي ، 2002)

وبالعودة إلى فترة ما قبل الاستقلال، نجد أن السلطة الوطنية في الجزائر عملت على استعادة الهوية الجزائرية، محاولة ربطها أنداك بالامتداد العربي الإسلامي، لذلك نجد أن كل النصوص الدستورية منذ الاستقلال، نصت على كون العربية جزء من الهوية الوطنية، مما جعلها تتبوأ مكانة رسمية باعتبارها اللغة الوحيدة الوطنية والرسمية للدولة المستقلة. هذا قبل أن يفتح النقاش اللغوي السياسي بعد أحداث 5 أكتوبر 1988، بل قبل ذلك مع "الربيع الأمازيغي" منذ 1980، 1982، لتصبح فيما بعد اللغة الأمازيغية لغة وطنية، صم رسمية فيما بعد.

3. التحولات الجديدة والتشكلات اللغوية:

لقد تعرض المجتمع الجزائري المعاصر ولا يزال -كغيره من المجتمعات- إلى مجموعة من التحولات والتغيرات التي خصت أغلب المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية. كان وقع هذه التغيرات على نطاق واسع، سواء من حيث عمقها أو اتجاهاتها، أو من حيث آثارها ونتائجها، ولاسيما خلال العقدين الأخيرين، إذ عايش المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة الزمنية عدة تحولات حقيقية وملموسة انعكست على حياة الأفراد.

1.3 التحولات السريعة والانفتاح اللغوي:

بدأت هذه التحولات ضمن سياسة الانفتاح الذي انتهجه المجتمع بداية من نهاية الثمانينات وحتى بداية من منتصفها، تتمظهر أكثر في المجال الثقافي وبالذات في إصلاح المنظومة التربوية منبع بناء وتشبيد الفكر والثقافة والمعرفة، وفي أهم عنصر في تحديد الهوية أي اللسان العربي. إضافة إلى ذلك، كان فتح مجال السمعي البصري (الإعلام الخاص) أيضا بمثابة نقطة تحول عاشها المجتمع الجزائري على وقع التعدد اللغوي والتنوع المنبري (القنوات) وبالتالي الإيديولوجي، كل هذا كان على حساب لغة الوحدة والانتماء الهوياتي اللغة العربية، وبالتالي أسس التكون للشخصية الجزائرية.

لقد أدى الانفتاح الشامل الذي عرفه المجتمع الجزائري في السنوات الأخيرة، سواء الانفتاح الثقافي أو الإعلامي إلى ظهور عمليات تحول وتغير ملحوظة في ملامح ومظاهر (ممارسات وسلوكيات) المجتمع والأفراد على حد سواء، ولقد مست هذه التحولات والتغيرات في المجتمع الجزائري أغلب جوانبه، ولكن كان النصيب الأكبر منها هو ما مس الهوية من حيث اللغة والانتماء.

هذا التحول كان واضحا وجليا بعد ما سمي بمرحلة الانفتاح الديمقراطي والتعدد الحزبي 1988/11/27 (مصادقة جبهة التحرير الوطني السادس على إجراء الإصلاحات التي تضمنت فتح باب الترشح والانتخاب، وجرى بالموازاة مع ذلك اعتماد الفصل بين الوظائف الحزبية). حيث شهد بعدها

المجتمع الجزائري تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية سريعة بل ومتسعة أحيانا بفعل تسارع الزخم الاجتماعي والانفجار الذي أدى إلى حالة التسريع بالإصلاحات بعد سنوات الشمولية والأحادية. عرفت المدرسة والإعلام الجزائريان العديد من التغيرات، بحيث لازالت المدرسة الجزائرية والمنظومة التربوية إلى اليوم تعيش حالة البحث عن بدائل إصلاحية، لم تحدد خصائصها بشكل واضح، مما جعل القرار السياسي رهين التبدلات وموازين القوى السياسية الداخلية والإقليمية وحتى الدولية. الإعلام، من جهته، سيشهد ولادة قنوات ومنابر إعلامية متنوعة لغويا وإيديولوجيا وسياسيا..

كل هذه التحولات كانت سريعة التأثير والتأثر في المجتمع الجزائري، وبالأخص لغته الوطنية.

2.3 الانفتاح اللغوي من خلال الإصلاحات:

التطورات والمستجدات الثقافية التي تعرفها المجتمعات تستلزم عليها القيام دائما بإحداث تغييرات إصلاحية في برامجها وهذا لكي تتكيف مع الواقع الذي يفرض نفسه.

هكذا نجد أنه بعد أن حصلت الجزائر على استقلالها سنة 1962، سعت إلى جعل التعليم إجباريا ومجانيا لكل الأطفال الذين تجاوز سنهم الست سنوات، وذلك قصد إعادة بناء المجتمع بناء فكريا وعمليا. تضاعفت أعداد التلاميذ واستلزم ذلك مضاعفة عدد المعلمين، وعدد المؤسسات. توالى بعده الإصلاحات الخاصة بالمنظومة التربوية والتعليم، فجاء إصلاح سنة 1976 الذي شكل بداية إرساء أسس وقواعد المنظومة التربوية في الجزائر وظهور المدرسة الأساسية. لكن هذا الإصلاح لم يدم طويلا، فما لبث أن تلاه ثم جاء إصلاح سنة 2003. "لكن هذا الإصلاح كثرت أخطاؤه، ولم يلق قبولا في أوساط الإدارة التعليمية"⁴.

الحديث عن اللغة العربية يقودنا إلى التطرق إلى الانتماء العربي الإسلامي للمدرسة الجزائرية، إذ أن التفتح الديمقراطي في الجزائر وتعدد الأحزاب السياسية وظهور بارز نوعا ما لهيئات ومنظمات المجتمع المدني من خلال عدة جمعيات مثلت مختلف المجالات، سهل عملية المطالبة بإعادة النظر في هذا المجال، "وهو ما كان سببا في الهجوم على المدرسة الجزائرية، ومحاولة إرجاع مشاكل المجتمع والدولة للمدرسة، بسبب اتجاهها العربي الإسلامي، مع العلم أنه لا يختلف اثنان في كون المجتمع الجزائري في أغلبيته الساحقة مسلما، ويصعب فصل الإسلام عن لغته الطبيعية، التي هي اللغة العربية" « في هذا الصدد تشير أستاذة في مقابلة معها فتقول: " أن أسباب فشل هذه الإصلاحات في نظري هي صدورها من وزارة واحدة (وزارة التربية)، ولا يؤخذ بعين الاعتبار عند وضع قرار مصيري كالإصلاح مشاركة عدة وزارات أخرى أو بالأحرى الاستعانة بالخبراء والأساتذة خاصة

منهم الباحثون، المربون، ومخابر البحوث والدراسات، وكل ذلك إنما هو دليل على غياب استراتيجية علمية ومنطقية للإصلاح التربوي في بلادنا"، وبالتالي كل هذا "يؤثر على الرصيد والحصيلة العلمية التربوية وحتى التأهيل ينال نصيب الفشل من هكذا قرارات، مقابلة أجريت يوم 20/04/2016 على الساعة 14:45 جامعة وهران»، وكذلك باعتبار المكونات الأساسية للثقافة الجزائرية هي الثقافة العربية الإسلامية وهي:

• الدين الإسلامي: الذي هو منبع الثقافة ودعامتها (سمة مميزة للهوية العربية الإسلامية للمجتمعات العربية والإسلامية).

• اللغة العربية: التي هي أداة الاتصال بين العرب، ووعاء الفكر والإنتاج والإبداع العربي، بل هي الرابطة الاجتماعية الفكرية والمعرفية.

3.3. الانفتاح الإعلامي وأثره على اللغة والمجتمع:

تنمو اللغة في المجتمع الجزائري لفظا وتعبيرا في سياق الحياة اليومية بحركة سريعة نظرا للتجاوب الحياتي، فترى العديد من الألفاظ والكلمات، وحتى التعابير الجديدة التي تضاف يوميا إلى القاموس الخاص بلغتنا (فصحي، عامية، لهجة) تحمل في ثناياها دلالات الشخصية الجزائرية، هذا الإنتاج الحركي للغة يتجدد ويتغير عبر المكان وعبر الفضاءات الاجتماعية والثقافية المختلفة، أي من خلال الواقع والمعيش للفرد وللجماعة داخل بيئتهم الخاصة وذلك من خلال الاتصال والتواصل السريع.

ومن أكثر الفضاءات التي أصبحت الآن تمد الفرد بمزيد من الإنتاج اللغوي أو بالأحرى الإنتاج وإعادة الإنتاج للمصطلحات والتعابير العامية خاصة هو الإعلام -الخاص-. فبعد سنوات قليلة من فتح مجال السمعي البصري في الجزائر، وجد الفرد الجزائري نفسه أمام العديد من القنوات الفضائية وسبول متدفقة من الألفاظ والمصطلحات تغزوه وهو في بيته، "وأكثر ما ميز هذه القنوات هو اعتمادها على اللغة العامية (عامية الشارع والسوق والمقهى ...)، حتى العناوين والتسميات البرامج أخذت نصيبها من العامية، إن هذا الإطناب في استعمال العامية وتداولها في الإعلام من شأنه أن يرجح كفة العامية على اللغة الفصحى أو بالأحرى يعمل على إقصائها" (سهام، 2009) الإعلام الخاص أدهش المتفرج الجزائري الذي طالما عهد اللغة الفصحى من قناته الرسمية رغم كل ما يقال عنها. فنظرة بسيطة إلى هذه المحطات الممثلة للإعلام في الجزائر "توضح أنه يشهد ظاهرة ما انفكت تتطور وبخاصة في السنوات الأخيرة، وهي ظهور العديد من البرامج والعناوين التليفزيونية التي تتبنى العامية كلغة للبرامج والمحتويات، تحت ذرائع مختلفة أهمها الاهتمام بترقية الثقافات الشعبية واللهجات المحلية" (مادن، 2011). وأكثر ما يميز هذه العامية هي الازدواجية والثنائية ومرات قليلة الثلاثية اللغوية دعما للقضية الأمازيغية.

هذه التحولات التي طالت أغلب المجالات وما اصططح عليها بالانفتاح، مست أهم قطاعين هما التربية والتعليم والإعلام، كان يرجى من خلالهما الإضافة والاستفادة، لا هيمنة مجهولة المصير تعبت بأهم أسس الانتماء والوحدة، "وبالتالي المجتمع والراهن، حالة من الانفصام بين حركة التعريب والإصلاح والانفتاح في النصوص والمواثيق والقوانين، بين الواقع الذي فرضته الزدواجية اللغوية على الإعلام" (الرحمن، 1981)

4. التماهي اللغوي والتماهي الهوياتي:

لأن اللغة العربية في الجزائر لغة مستقرة ومتواجدة رغم كل الهزات السياسية منذ أكثر من 14 قرنا، فإن هذا يخلوها أن تكون أقدم لغة بعد الأمازيغية، والأولى من حيث الانتشار والاستعمال والتمكن، تعلق الأمر باللغة الفصحى أو العامية (اللهجات ذات الأصل العربي). مع ذلك، "يصر المستشرقون دائما على اعتبار الفتوحات الإسلامية للجزائر بأنها استعمار عربي جهلا أو تجاهلا، وفي كلتا الحالتين تتم التسمية عن اعتراف بوجود الأقوام الأوربية في القديم والحديث في هذا البلد كان استعمارا بالمعنى الحقيقي للكلمة وليس نشرا للحضارة وإخراج الشعوب المغربية من الظلمات، ورفع الضيم عنها، وتخليصها من الاحتلال العربي والتركي كما كانوا يقولون، وتنم عن حقد على الإسلام الذي حل محل الدين المسيحي في هذا البلد قديما وقاوم الغزو الصليبي الاسباني والفرنسي حديثا" (نعمان، 1994) ويعتبر المجتمع الجزائري بمقوماته الثقافية والحضارية والتاريخية جزءا من المجتمع العربي الكبير الذي يمتد من إفريقيا إلى آسيا، والذي يطلق عليه اسم "الأمة العربية"، فيما يتجاوز أحيانا الحدود العربية ليسعى "الأمة الإسلامية الناطقة باللغة العربية". فالجزائر والجزائريون يشتركون في أهم مقومين مع باقي أعضاء الأمة العربية. الإسلامية في اللغة العربية – اللغة الرسمية للبلاد- والدين الإسلامي – الدين الرسمي ومصدر التشريع في البلاد-. "إن الكلام هو عملية رمزية تعبيرية وهناك بعض النظريات النفسية تؤكد على الترابط الشديد بين الفكر واللغة، قد ينشأ الكلام عندما نريد التعبير عن أفكارنا إلى أنفسنا أو إلى الغير، وإن الكلام ليس تعبيرا عن الأفكار فحسب، بل هو تعبير عن الانفعالات والعواطف والرغبات أيضا" (مصطفى، 2003) وبالتالي فرض الذات ما تحمله من قيم ومعتقدات وثقافة تعبر عن الهوية والانتماء

1.4. بين الاغتراب الثقافي والازدواجية اللغوية الهوياتية:

اللغة العربية الفصحى اليوم، ورغم دستوريها كلفة رسمية ووطنية إلا أنها تعرف تململا على كثير من الأصعدة، خاصة الايديولوجية والسياسية والتربوية، بفعل مزاحمة اللغة الفرنسية لها في كل المجالات، إضافة إلى الأمازيغية التي شهدت تطورا ملحوظا منذ نحو 20 سنة فقط. ولعل هذا ما يجعل المدافعين عن العربية من العروفلية، يعربون عن قلقهم وتوجسهم من هذه المنافسة بين لغة المستعمر ولغة الوطن الأم، حيث يرى خليفة بن قارة أنه "لم يشعر العرب بالاغتراب اللغوي

(الهوياتي) على امتداد تاريخهم، كما يشعرون به اليوم. فقد ذهب السياسيون المثقفون الفصحاء (...) وقد تكون لغتهم السليمة تنبع من فكر سليم لفائدة مواطنهم على الأقل (...) ولم يورثوا فصاحتهم إلى أبنائهم، وذهبوا لتأتي بعدهم نماذج سياسية تتعثر في لغتها إن لم تكن تستحي بها، وتستعين باللغة الأجنبية لتغطي بها نقيصتها، فلا هي أبدعت الأولى ولا هي امتلكت الثانية، وبقيت واقفة في منطقة وسطى والعالم يسير" (قارة، 2016)

يكتسب الفرد بمجرد تواجده داخل مجتمعه بحس الانتماء للمجموعة، هذه المجموعة هي التي تعمل على تلقينه الوسائل التي يعمل بها على بناء هويته الاجتماعية والثقافية، ذلك أن الهوية والثقافة أمران مترابطان. في هذا السياق، تقول خولة طالب الإبراهيمي: "تكمّن وظيفة المجموعة الاجتماعية في تزويد أعضائها بهوية اجتماعية ايجابية، وهؤلاء يقارنون أنفسهم بالمجموعات الأخرى ويتميزون عنها وفق عدد من الأبعاد البارزة التي تتوفر على قيمة تمييزية بينة" (الإبراهيمي، 2007) هذه القيم والمكتسبات التي تكون هوية الفرد اللغوية والحضارية هي من يخلق للفرد نفسه إحساس الاغتراب داخل المجتمع إذا تعرضت تلك القيم أو المعايير التي نشأ عليها للتغير والتطور أو نادرا الاندثار، وهذا ما لا يريده لغة العربية دعاء التعريب. فالتغير والتحول لأي لغة هو شيء بدوي، باعتبار اللغة تتسم بالمرونة العالية والقابلية للتغير استجابة لكل طارئ على الثقافة والمجتمع. فالرصيد الثقافي الحضاري الذي يحمله الفرد داخل مجتمعه لفترات يصبح رصيد خاضع للتغير والتحول أمام طاقة الاستيعاب اللغوية (المتعددة) الكبيرة والمفتوحة مسبقا.

2.4 التشكل اللغوي الجديد للشخصية الجزائرية:

اللغة في نظر علماء الاجتماع وعلماء اللسانيات والمختصين باللغات: "... كائن حي يتطور بتطور حركيته، وتضمحل وتموت بالسكون أو الثبات في أي اتجاه يبقى عليه (قارة، 2016) وعليه، فالحكم على واقع اللغة والتجدد والتغير أو أي شكل من الأشكال التي تمس البناء اللغوي في الجزائر لا يكون إلا من خلال رصد حركيته هذا التغير وهذا التحول وذلك من خلال الإحاطة بالممارسات اللغوية لدى الأفراد في كل يومياتهم. هذا ما يجعل خولة الإبراهيمي تردف قائلة: "إن واقع وملاحظة الممارسات اللغوية الفعلية يبينان جدا أن الجماعة الجزائرية تتخللها معايير وسلوكيات متناقضة لا يمكن ردها لتنوع المرجعيات الرمزية التي تحيل عليها التنوعات الثلاثة الأساسية (العربية، الفرنسية، الأمازيغية) بالإضافة إلى الثنائيات واللهجات التي يصادفها كل ناطق في واقعه المعيش (الإبراهيمي، 2007)

إن للتشكل اللغوي داخل المجتمع الجزائري والذي يمس الخطاب اللغوي لدى الفرد الجزائري ويهدد هويته هو نتاج مراحل تاريخية، انطلاقا من مرجعيات لغوية وثقافية ثلاث تنطوي على مراحل اندماج الاجتماعي (الإبراهيمي، 2007)

• **المرجع الأول:** تشكل "هوية القاعدة" التي يهض بالتعبير عنها المنشأ اللغوي الأصلي الأمازيغي أو العربي، غالبا ما تكون هذه الهوية القاعدية موسومة بالتدين الشعبي الحي والتقاليد والعادات التي ارتبط بها الفرد.

• **المرجع الثاني:** الهوية موسومة هنا بالفضاء الوطني بوصفه الفضاء الموحد لجميع الجزائريين، فبي إذن تساهم في تعزيز الشعور بالانتماء إلى رقعة حضارية متميزة تشكل اللغة العربية أبرز أماراتها.

• **المرجع الثالث:** هي اللغة الفرنسية والتي تفرز خصوصية الجزائر والمغرب العربي مقارنة مع المشرق، وتدمج المغرب العربي فضاء متوسطي مرتبط جدا بالصفة الشمالية الأوربية ومن ثم بالحضارة الغربية الحديثة والمتطورة.

فيما تقترح الباحثة حولة طالب الإبراهيمي خطاطة تصور لنا ثلاثية لغوية عربية. هذه الثلاثية تقسمها إلى: عربية فصحي، عربية كلاسيكية، وعربية دارجة، وتضيف:

"من الوجهة السوسيولسانية فإن الثلاثية اللغوية عبارة عن تخصيص وظيفي الأبعاد، فالتنوع الأوسط وظيفته تقليص المسافة المفهومية والبنوية بين عربية المنشأ الأصلي العفوية المجعولة للحياة العملية والتي تستخدم في المشافهة ليس إلا" (الإبراهيمي، 2007). وبالتالي تكون العربية الدارجة تعني العامية المخلوقة من صميم العربية الفصحى هي لغة الحياة اليومية لغة شفوية مختصرة المصطلحات سهلة التداول. فيما تعتبر العربية الكلاسيكية "المسخرة في نظرها للتعبير عن الحاجات الفكرية ولغة التراث العربي الإسلامي التي تستعمل دائما في الكتابة خاصة، أما العربية الفصحى فتكمن وظيفتها في الاضطلاع بالتبليغ الشفوي العفوي فقط في الأوضاع والمقامات الرسمية والتي لها علاقة بالمجال المكتوب مثل الشؤون الإدارية" (الإبراهيمي، 2007)

خاتمة:

إن البحث في اللغة في مجتمعنا، يحيل الباحث بالإضافة إلى بديهية مسابرة اللغة للتطور والتحول، إلى اكتشافه ومعرفته بظهور تعابير لغوية ذات معايير ثقافية واجتماعية مختلفة تعبر عن تشكل لغوي متجدد ومعاصر وحركي (يخضع لحركية المجتمع) يتميز به الشخص الجزائري فيما يخص لغته وأداة تواصله اليومي مع أبناء مجتمعه من جهة، وتواصله العالمي فيما يخص وسائل الإعلام والاتصال وغيرها من جهة أخرى. فالتماهي اللغوي يتبعه التماهي الهوياتي دائما.

فالتغير اللغوي والحراك الكلامي (خاصة اللغة اليومية) يكون على أبعاد جغرافية مكانية، كما يعتمد أيضا على البعد الزمني كثيرا – سرورة تاريخية- لذلك نجد عدة أساليب وتعابير لغوية

تختلف من مكان لآخر ومن جيل لآخر، واللغة في الفترات الماضية بالضرورة تختلف عن لغة اليوم. هذا إلى جانب تدخل البعد الثقافي والاجتماعي والتبادل العلمي والمعرفي.

قائمة المراجع والمصادر

- أحمد بن نعمان. (1994). نفسية الشعب الجزائري، بن نعمان أحمد دراسة علمية في الأنثروبولوجيا النفسية. الجزائر: دار الأمة.
- بلقاسم بومديني. (2003). المجتمع الجزائري بين الهوية اللغوية الرسمية و الهوية اللغوية الشعبية. جان بيار غارني، وعبد الجليل الأزدي. (2002). عولمة الثقافة. الجزائر.
- جان كالفي لويس. (2008). حرب اللغات والسياسات اللغوية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- حركة أمل. (2011). دراسات في علم اجتماع الأدب. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- خلاف مسعودة. (2011). التعليمية وإشكالية التعريب في الجزائر أطروحة دكتوراه. 217. قسنطينة، جامعة منتوري.
- خليفة بن قارة. (2016). اللغة العربية في الجزائر- من الحظر إلى الحجر-. الجزائر: منشورات السائحي.
- خولة طالب الإبراهيمي. (2007). الجزائريون والمسألة اللغوية. الجزائر: دار الحكمة.
- سلامة عبد الرحمن. (1981). التعريب في الجزائر من خلال الوثائق الرسمية. الجزائر: مكتبة الشعب الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.
- سهام مادن. (2011). الفصحى و العامية وعلاقتها في استعمالات الناطقين الجزائريين. مؤسسة كنوز الحكمة.
- شوقي السنوسي مصطفى. (2003). تعابير الغضب اللهجية عند شيايب مدينتي تلمسان ووجدة - دراسة اجتماعية لغوية في المجال الدراسي و المتزلي-. الجزائر: دار الكنوز.
- عمار يزلي. (2016). القبيلة الفضاء و المعتقد بحث في تشكل عناصر بنية الهوية المغاربية. وهران: لالة صفية.
- مادن سهام. (2009). الإزدواجية اللغوية في وسائل اعلام بلدان المغرب العربي. مجلة أبحاث في اللغة و الأدب العربي(5).

Dubois, j. (1973). dictionnaire de linguistique. paris: Larousse